من هم الوجوديون . . ؟

تسربت الفكرة الوجودية إلى كثير من النفوس التى عانت بعد الحرب فراغاً روحيًّا هائلا ونهض الذين قضى عليهم أن يستأنفوا الحياة من تحت أنقاض عالمهم وهم يمسحون عن وجوههم غبار الانهيار الذى انهارت معه أعصابهم ليروا كل شىء قد ذهب . . . المال . . والجاه . . والزوجات . . والأولاد . . فأصيبت القيم المعنوية التى عجزت عن أن تدخل العزاء إلى النفوس بتصدع كبير .

وكان لابد لكثير من الناس أن يجد له واحة يصنعها بنفسه يستمد منها فلسفته الجديدة يستطيب معها احتمال آلامه فبرزت الوجودية من مخبئها القديم وراحت تنادى بالدين الجديد فى الظرف المناسب .

وكان المرعى الخصيب للدعوة الوجودية هو أوساط الشباب حيث كل جديد يبدو براقاً وحيث لا توجد فى أعماق النفس من التجربة والخبرة مقاييس تقف أمام هذا الدين الجديد بكل زخارفه وألوانه .

وساعد على هذا أن رجال الدين فى كثير من البلاد نهضوا ليقدموا للناس العزاء بصورة واقعية ولا لتصوير الدين تصويراً صادقاً ترتاح إليه النفوس المعذبة قبل أن يخطف أبصارها بريق الوجودية .

وهناك طائفة أخرى من أتباع كل جديد من الذين يسارعون إلى اعتناق كل فكرة جديدة باعتبار أن هذا التصرف يكسبهم فى نظر الغير لوناً تقدمياً فلا يتهمون بالتأخر ولا بالرجعية وهؤلاء كثيراً ما يسيئون إلى الوجودية أكثر مما يحسنون إليها لأن أسبابهم إليها وفهمهم لها يعتبر سبة فى جبينها فإنها مهما كانت من هوان الشأن فإن لها فى بعض جوانبها ناحية مشرقة فإنك يمكن أن تجد فى كل شر ناحية خير .

فراح كثير من الوجوديين يلبسون مذهبهم ثوب التهريج يخلعون على هذا التهريج لوناً من ألوان القداسة ويجندون فى سبيل الدفاع عن ذلك حشوداً من الألفاظ المرنة المطاطة التى تحمل كثيراً من المعانى والتى فيها من قوة التأثير الشكلى ما يستهوى الناظر السطحى .

* * *

وكما أن النار المندلعة من أكوام من القش ترتفع فى الجو

مرة واحدة حتى تخلب بارتفاعها الشديد الفجائى الأبـ
ثم تخمد وتتوارى . كذلك صنعت الوجودية فإنها بدأت بـ
الحرب ترتفع فى فرنسا ارتفاعاً شديداً ثم راحت تخمد وتتوارى
ومن سوء حظ بعض البلاد أنها أبصرت بنيرانها فى إبان ارتفاع
الفجائى فراح البعض يقلدونها وينفخون فى جذوتها عندهم بـ
هى تحتضر فى بلادها . . . إن الوجودية مقضى عليها حـ
بالموت لأنها تحمل فى جسدها ميكروبات مرضها والقضـ
عليها ومن الخير أن ندعها تموت بغير ضحايا وأن ننقذ الذ
يستهويهم أن يكونوا من ضحاياها .

إنها رائعة إذا شوهدت على البعد ولكننا حين نقترب مـ
ونلمسها نسخر منها ونسخر من غرورنا بها حين كنا نراها بـ
ضخماً وهى من الورق المنفوش

* * *

وإذا كانت الوجودية تحتضر الآن فى بلادها فإننا لا نر
لها وهى تموت أن تضع رأسها على وسادة يصنعها عندنا بعض
المهرجين المطبلين لها حتى لا يظن أنها شهيدة

إن الأصوات التى نسمعها تتكلم باسمها هى حشرجة المون
للوجودية حين تصرخ فى صحوة الاحتضار . . إننا يجب أن

ترقب موتها جيداً حتى لا يتخلف بعدها وليد ملعون يحمل اسمها ويدعو بدعوتها .

* * *

إن من طبائع الناس أنك لو وقفت بينهم فى ميدان كبير ورحت تؤذن وتدعوهم إلى الصلاة لمروا بك ساخرين ولو ظهر بينهم دجال يخرج من جيبه ثعباناً يصفر لالتفوا حوله فى عناية مصفقين ولكنهم قد ينصرفون عنه بعد ذلك وينسون أمره وذكره وهكذا التفاهات قد تجد رواجاً لا يثبت على الزمن .

وليست الشهرة وسرعة الانتشار بدليل على قوة المبادئ وثباتها فالأمور الجدية قد تلقى حرباً ضروساً وتظل أجيالا حتى يرتفع لها بناء ولكن الهياكل التى تقام سريعاً من الورق يكفى عود ثقاب ليأتى عليها .

لقد ظهر الوجودى فى المجتمعات الباريسية فى زى تهريجى غير مقيد بعرف ولا تقاليد ولا دين يزعم أن هذا هو التحرر من كل شىء عدا الإحساس بالوجود والتصرف طبقاً لهذا الإحساس . وقد يكون هذا التصرف مخالفاً للوجودية الأصلية ولكن يكفى أن الوجوديين أنفسهم يعترفون بأنه لا توجد للوجودية سمات محددة وليست لها وصايا وإنما هى تكشف

لكل إنسان عن وجوده وتترك له حرية التطبيق فللناس العذ
حينما يرون وجودياً فى زى خاص أو تصرف خاص أن يرو
بأنه يتصرف وفقاً لنزعة مستمدة من الاتجاه الوجودى الذى
يحرص أنصاره أن يرددوا بأنه لا دين له ليتسللوا من وراء ذلك
إلى كل دين فعلى الوجودية إذن أن تتحمل وزر ما يلقى عليها
ما دامت دعوة بلا وصايا ولا نصائح ولا مثل .

* * *

obeikandl.com

الوجودية . . والإنسانية

إن سارتر وارث عرش الوجودية يتلخص دستوره الذى يفهم من كتاباته واتجاهات أعوانه وجنود مذهبه وما تنبض به قصصه ومحاضراته ، يتلخص ذلك كله فى الدعوة إلى طاعة النفس .

فأنت تجد فى قصص « سارتر » شخصيات تدور حول تنفيذ الوحى الذاتى وتمجيده ولو كانت هذه الانبثاقات الذاتية ذات صبغة طيبة كأن تدعو إلى تمجيد الفضيلة أو الخير أو الجمال إذن لقلنا إن النفس الداخلية توحى بالخير والشر وأن الوجودى يتحمس للجانب الإيجابى .

ولكن العكس هو الصحيح ذلك أن النفس أمارة بالسوء ولذلك فإنه من الصعب جداً بل ربما كان مستحيلا أن تجد وجودياً يركز وجوده فى سبيل فكرة بنائية أو عمل إيجابى .

إن الشيطان نفسه يستحى من أن تكون كل إيحاءاته سوداء بل إنه ينفذ إلى النساك والعباد بأن يغريهم أولا بشىء من الخير وربما دعاهم إلى التطرف فيه ليلهيهم التطرف عن حقيقة

الأصول الإنسانية القائمة على الاعتدال .

والنبي محمد يقول لأن يذهب أحدكم فى حاجة لأخيه خير له من أن يعتكف فى مسجدى هذا أربعين ربيعاً ذلك أن نفع الناس هو رسالة الإنسان وخير الناس أنفعهم للناس وألد أعداء الاتجاه الإنسانى هى الأنانية حتى لو أريد بها الخير الذاتى المحض .

والهواتف الوجودية كلها تدور حول الذات أى حول الأنانية .

فالوجودية إذن لا تحفل بالإنسانية وهى ذات خطر كبير لأنها تمجد الغرائز وتباركها وهى خالية من الأمصال التى تحميها من جراثيم الشرور .

* * *

على أنه إذا كانت هذه هى الوجودية التى يخلب بريقها أبصار الشبيبة التى يستهويها طاعة النفس فإن الإنسان يحار فى تصرفات أقطاب الوجودية ممن تعتبر تصرفاتهم تطبيقاً عملياً لدعوتهم ويجب أن لا تنسى أنهم دائماً — وهذا يكاد يكون عرفاً متبعاً فى الوجودية . . يخلعون على تلك التصرفات أسماء لولبية تفهم على تأويلات شتى لتضيع الحقيقة وسط الألوان الكثيرة .

«فهتلر» مثلا كان يلغى شخصية الفرد فى سبيل فائدة ألمانيا ويجعل الفرد الألمانى وقوداً لإدارة الآلة الكبرى.. الدولة.

ويبدو أن هذا ضد الوجودية التى تمجد الفردية ولكن «هيدجر» أستاذ «سارتر» بعد أن عينته الحكومة النازية عام ١٩٣٣ عميداً لجامعة فريبورغ ذهب أولا فى تمجيد الإرادة الفردية تمجيداً بعيداً حتى ليقول أحد تلاميذه متهكماً إننى أود أكون ذا إرادة حديدية كما يدعو هيدجر ولكنه لم يوضح ما هو هذا الشيء الذى يلزم أن نصمم عليه وأن نجعل إرادتنا فى سبيل تحقيقه إرادة حديدية.

ويحار تلاميذ هيدجر فى تفسير أمرين متناقضين.. الفردية المطلقة كما تدعو إليها الوجودية.. والفناء المطلق فى شخص زعيم هتلر.

فإذا بهيدجر الوجودى الكبير يفسر لهم الأمر فيقول إن هتلر هو روح الشعب وهو صميم الوجود الألمانى فحينما تفنى فى هتلر تكون قد حققت صميم الوجود الألمانى الذى هو وجودك أنت من حيث أنك فرد ألمانى.

* * *

فإذا اتخذنا هذا التفسير العجيب قاعدة فإن الوجودى

يمكن أن يفعل أى شىء بأى طريقة وبأى أسلوب ثم بر
ما ذهب إليه بأن هذا هو الوجود العام الذى يفنى فيه وجود
الشخصى .

وفى ذات الوقت يمكن لوجودى آخر أن يحارب نفس
الشىء ويستعمل نفس التأويل بطريقة عكسية . فالوجود
على هذا تبرير عجينى مرن محض يقبل أى صورة وزنة
لن تستطيع أن تمسك به .

وهذا المبدأ أولى به أن يسمى بالانتهازية التى تنتهز
فرصة لتنادى باسمها تحت اسم الوجودية وستجد فى القامو
الوجودى من الألفاظ الحادة ذات الرنين الموسيقى الذى يستهو
الشبان ما يضرب على أوتار نفوسهم

* * *

بل إن الوجودية ذهبت فى وقت ما إلى تمجيد الدين واعتبر
أن إيثار الإنسان لأى مطلب شخصى يعتبر خطيئة فى حق
الوجود الإلهى الذى يجب أن يفنى الإنسان فى ذاته المقدسة عل
الطريقة التى رأى بها هيدجر فناء الفرد فى ذات الزعيم « هتلر »

ويقول « كارل باسبرز » الفيلسوف الوجودى « إن الإنسا
ليدفع حياته ثمناً كى يكلمه الله » وبينما تكاد تؤخذ كمؤمن بالله

وباليوم الآخر وبرسله وكتبه بهذه الصوفية الوجودية العجيبة إذا بك تسمع من وجودى آخر كبير هو « سنستوف » صيحته التى تقول « إذا كنت تريد أن تكون وجوديًّا صادقاً فيجب أن تنبذ ظهرك الله والعقل وذلك أن البواعث الإنسانية لن تزدهر معهما » .

وتمسك رأسك من الصداع الذى ألم بها من جراء هذا التناقض العجيب الذى يدل على أن الوجودية مجرد لافتة يمكنك أن تحملها ثم تضعها على أى محل تشاء : تضعها على الحمارة كما تضعها على باب الكنيسة أو باب المسجد : وتكون النتيجة لذلك أنه إذا وجد اثنان من الوجوديين فستجدهما مختلفين فى الاتجاه أصلا وفرعاً وإذا وجد ثلاثة ازداد الخلاف ويمكنك أن تحصى المذاهب الوجودية بأن تحصى عدد أنصارها فى فجاج الأرض ؟

* * *

والسبب فى ذلك أن الوجودى يعبد هواه فهو قد يذكر الله صباحاً إذا وافق ذلك هوى فى نفسه فى الصباح ثم يكفر به ظهراً ويجد عنده ما يبرر به الاتجاهين وسيزعم أنه كان صادقاً مع نفسه . . مع ذاته . ومع الاتجاه الوجودى فى الظهر . .

وكل يوم هو فى شأن وسبحان من له الدوام .

* * *

إن الوجودية تقول إن الإنسان خالق نفسه . . . وذلك معنى واسع ينتشى به كل من فى قلبه مرض وكل من فى نفسه مرض وكل من فى عقله مرض . . إنها كلمات حادة كأسنة الحراب ولكنها لا تدل على معنى حقيقى لا ترضى إلا أولئك المرضى الذين تستهويهم نشوة التعالى والعظمة والشعور بفخامة النفس حين يتصور كل منهم نفسه إلهاً ، وهكذا تصبح الكرة الأرضية جنة للمجانين حتى يصبح عدد سكانها آلهة بلا عباد ، ولا كتاب مقدس ولا ملائكة ، ولا جنة ولا نار ولا وصايا ولا دين.

* * *

صدام مع العقل

وإذا كانت الوجودية ليس لها لون خاص ولا قاعدة ولا توجيه ولا وصايا ولا حدود وإنما هى تختلف باختلاف أعوانها إلا أنها تكاد فى كل صورها تجمع على شيئين هما أنه يجب نسف العقل والدين . . . عدا بعض بوارق عند « كيركيجارد » و « سبرز » تشير إلى وجود إيمان من لون خاص ، إيمان ذاتى منبثق من شخصية فردية لا ينطبق على الإيمان المعروف بأصوله المحددة .

فالعقل عند الوجودية ليس ديموقراطياً . بل إنه أداة أرستقراطية مشحونة بأفكار سادة أرستقراطيين هم الفلاسفة الذين عاشوا فى الأبراج العاجية لتغذية العقل بأفكار واتجاهات غير وجودية .

هذا العقل الذى يمسك بالعصا يلهب بها ظهر صاحبه إذا انحرف عن أوامره أو يوخزه باسم الضمير بإبرة من الداخل يعوق صاحبه عن الاتجاه الاختيارى الحر ويقف حائلا بينه وبين حريته ولا يدع الوجودى يعمل على تحقيق ذاته وفقاً لإرادة

حرة غير مقيدة بل العقل يلوى عنانه ويرغمه على النزول عند مقاييسه .

فهذا العقل الواعظ الذى قد يحلو له أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يقف كالجدار فى طريق الوجودى ومن ثم فيجب أن ينسف .

* * *

وكذلك الدين عند أغلب دعاة الوجودية إن لم يكن أكثرهم عدا من يؤمن بالله على طريقته الخاصة إيماناً قد يأتى مصادفة ولا يلزم صاحبه بتبعات ، فالدين عند الوجودية خرافة يؤمن بها الإنسان المجهول و يتلقى منها أوامر ينسبها إلى واعظ غير موجود وغير مرئى يسميه الله ثم يخر ذلك الإنسان فى حماقة ساجداً فى رهبة لذلك المجهول الذى خلقه خياله .

وإذا كان الله موجوداً فإن الإنسان هو الذى خلقه — تعالى الله — والإنسان الذى يريد أن يسير فى طريقه يجب أن يحيد عن طريق ذلك الإله الذى قد يمنعه من الاستمرار فى المسير ويقول له عند أى نقطة من نقط الطريق قف .

والوجودى لا يريد أن يتلقى أمراً من أحد ولو كان هذا الأحد هو الله .

والدين قاصر عن تلبية الرغبات الوجودية ، هكذا يزعم الوجودى مدعياً فى غرور صبيانى أن الدين محدود بتعاليمه أما الوجودية فانطلاق كامل إلى غير نهاية لأنها بلا تعاليم ولا وصايا أى بلا قيود .

* * *

ولن تستطيع أن تجادل الوجودية وتقنعها بوجهة نظر الدين أو العقل إذ أنك إما أن تتخذ براهينك من وحى العقل وهى لا تؤمن به وإما أن تجعل الإيمان نوراً تريد أن تهدى به السبيل وهى ضد هذا الإيمان ويمكنك أن تسأل الوجودى إذا كنت خالق نفسك أى صانع ذاتك وناسج اتجاهاتك فأى إرادة هذه التى تتدخل فى طريقك فتفرض على ذاتك وإرادتك وحريتك بالرغم منك ومنها ومن كل شىء حق « الفيتو » ؟

ما هذه القوى التى تجعلك بالرغم منك تسير يميناً وقد كنت متجها شمالا؟

وإذا كنت صانع وجودك فهل تصنع رزقك وصحتك وتتحكم فى أجلك وموتك ؟. وتفرض على صديق أن يلقاك فى الموعد الذى تراه أنت وتعمل على تغيير الفصول وقصر الليل وإطالة النهار .

فإذا لم تكن قادراً على التحكم فى هذا الوجود فماذا بقى لك لتتحكم فيه .

الأهواء . . والشهوات وهواتف الغريزة . . ؟

وحتى هذه قد جربت مراراً أنك غير قادر دائماً على استغلالها وفق ما تشتهى .

فأى قوة هذه التى تعترض طريقك . . ؟ !

* * *

إن نظرية العداء للدين هى امتداد للنظرية النفسية التى وجدت بالتجربة أن الإنسان المغيظ المأزوم يصب جام غضبه على شىء ما يجد فى العداء له تنفيساً عن آلامه ويجعل هذا الشىء يحمل أوزار الفشل والعقد القديمة الدفينة .

وقد كان هتلر على علم بهذه النظرية فكان يعمد من حين إلى حين إلى إيجاد أعداء تصب عليها النازية غضبها فيشتد حماس أفرادها .

وعلى هدى هذه النظرية أرادت الوجودية أن تلهب ظهر أعوانها بالحماس فناصبت الدين والعقل العداء فتذكر لهم إما أساطير غامضة تشل قوى التفكير الوجودى وتجعله يستسلم للمجهول بينما يجب عليك أيها الوجودى أن تكون حرًّا فى تحطيم كل قيد يحطم إنسانيتك ومن العار أن تدع العقل يعلمك بل لابد لك من تعليم نفسك بنفسك وممارسة التجارب الحية . . وليس من المهم أن تخطئ أو تصيب فهذا أمر اعتبارى بل

لطأ نفسه يشعر الإنسان أنه موجود .

* * *

أما الدين فإنه يدفع إلى العدم لأنه يجعل الذات فى عبودية
وفى هذا فناء لها فالله هو الذى يقدر ويفرض ويحرم ويعاقب
يحيى ويميت وليس عليك إلا أن تتلقى أوامره ، أو تسعى
ت تلتمس منه أن يبارك مسعاك فيجب على الوجودى أن
مرد على هذا كله . فلن يقبل أن يرفع يديه إلى السماء طالباً
ئاً أو نادماً مستغفراً ملتمساً فتح باب الرضوان .

وهكذا يذهب الجنين الذى فى بطن أمه يضرب جدران
طن وهو يقول هذا هو عالمى ، هذا هو وجودى فإننى لم أر
وداً سواه ومحال أن يرتبط وجودى بوجود شىء آخر اسمه الأم
هذه الأم غير موجودة ودليلى على ذلك أننى لا أراها ولن
ح مكانى هذا فيجب أن أرتب أسباب إقامتى فيه . وأن أنظم
أنى ورزقى من هذه الأحشاء والأمعاء .

وهكذا يظل الجنين يتخبط فى وجوده المزعوم حتى تلفظه أمه
وهاً من هذه الحقيقة الكبيرة التى كان يعيش داخلها وينكرها .

* * *

وفى بيت الدمية للكاتب النرويجى « هنريك إبسن » ما يجعلنا

نفهم أن المجتمع هو أكبر وهم وأضعف فكرة . ذلك أنه لي
هناك مجتمع على الإطلاق وإنما هناك أفراد ، هم أنا وأن
وهو وهى وضع على هؤلاء لافتة وهمية كتب عليها « المجتمع .

ومفهوم هذا الكلام إنه إنكار لوجود المجتمع وثورة ع
أى على نظمه ، فالوجودى يعيش من أجل نفسه وعلى الن
والناس والمجتمع العفاء . فإذا عاش من أجل فكرة أو هدف
أو حتى من أجل أم أو أب أو زوجة أو حبيبة أو ابن ك
الوجودى خائناً لوجوده ، فالواجب تفتيت المجتمع وهدم
الضخم ونزع أحجاره وأبوابه وأخشابه ثم سحقها سحقاً حت
تصبح ذرات وحتى تصبح كل ذرة منفردة بذاتها وفى
شعورها الأحمق بوجودها . لأن المجتمع كان يلغى شخص
ويتحكم فيها ويحكم عليها بالإعدام لأنه يدمج وجودها فى غيره

ويقول الفيلسوف الروسى « برديانف » أن المجتمع أضع
من أضعف حيوان تسحقه ببعض قدمك .

فبديهى أن يكون المجتمع أضعف من الفرد ذلك أ
المجتمع فكرة مجردة وهو بكل ما فيه لا يعدل من القيمة الوج
شخصية فأر لأن الفأر الصغير يصرخ ويئن ويتلوى وي
ويموت ويلد ويتكاثر ويقاوم الموت ويغالب الفناء وير
صفات أجداده ولكن المجتمع لا يبكى ولا يئن ولا ينو

ولا يورث . وذلك لأن المجتمع مجرد فكرة .

والوجودية تقف وجهاً لوجه فى كثير من اتجاهاتها ومراميها فى عداء مع الفلسفة وذلك أن الفلسفة لون عميق من ألوان تفكير ذلك الشيطان الرجيم المسمى العقل ثم إن الإيمان بالعقل قد ينتهى بالمرء إلى الإيمان بالله أى بالعدم لذلك فالوجودى لا يؤمن بالفلسفة إلا أن تكون فلسفة مادية تقطع الخيوط بين الناس وبين كل ما هو معنوى أو مقدس ، فإن وجدت مثل هذه الفلسفة فإن الوجودى يؤمن بها بحذر فالوجودية لا تعرف الثقة المطلقة إلا بنفسها وذلك أنها ترى أن عالم الفكر ملىء بالمزالق وأنك قد تسير معه فى طريق فينتهى بك من حيث لا تحتسب إلى طريق آخر .

وإذا كان الوجوديون مع عدائهم لشىء ما لن يحجموا إذا دعتهم الضرورة إلى الأخذ به رياء إلى الحين الذى يحققون فيه مأرباً لهم فإنهم مع عدائهم للفلسفة يدعون أن سقراط كان وجودياً أى أنه أول من فلسف الوجود وهى ألفاظ يخلعونها بالأسلوب الذى يرضيهم . ألم يكن سقراط يدعو الإنسان إلى أن يعرف نفسه بنفسه ؟ وهذه هى الوجودية . هذه الكلمات تكاد تجدها على لسان كل صغار الشباب المرتدين ثياب الوجودية ، وهو تأويل كاذب ذلك أن سقراط كان يدعو إلى

الفضيلة والوجودية لا تدعو إلى شيء ، بل تدعو إلى السلبية والوجوديون يفخرون بأن كيركجارد أراد بدعوته أن يوقظ النائمين فى أحضان العقيدة — « وسارتر » قطب الوجودية فى هذا الزمان يضع قصصاً وجودية يكشف فيها شخصياته ويفضحهم ويدعهم فى عرض الطريق عرايا من كل شيء ومن كل خلق أو فضيلة ثم يتولى عنهم بلا توجيه وحتى بغير كلمة عزاء .

سيقولون إنه كالطبيب يكشف عن مرضاه فليس فى تعريتهم حرج وسنقول لهم إن الطبيب يكشف عن مرضاه ليعالجهم دون أن يأخذهم عرايا إلى عرض الطريق ويقرع حولهم بالجرس ويقول لهم فى فضيحة من الملأ هاأنتم أولاء على حقيقتكم فانطلقوا لقد نزعت عنكم الثياب وكشفت لكم عن حقيقتكم عن وجودكم فلا تخجلوا من عوراتكم .

لماذا إذن الاحتفال بهذه التفاهات؟ إن هناك أقوام مصابون بألوان أخرى من الشذوذ وقد جعلوا من الشذوذ دعوة لهم فلماذا يكون لكيركجارد وسارتر أنصار ؟ ولا يكون لهم أنصار ؟ وهل إذا كان سارتر هذا بوذياً أو إندونيسياً ودعى بهذه الدعوة هل كان يجد من يردد هذه الدعوة هنا من ورائه أم أن هذه الدعوة جاءت من بلاد يحب أناس أن يربطوا أنفسهم بعجلتها ورحم الله زمناً كان كل ما يرد من هذه الجهات يلقى التأييد بلا مناقشة ولا جدال .

هل الوجودية رجعية . . أم تقدمية ؟

ترفع الوجودية فى يدها سكيناً لتقطع بها كل يد تحاول أن تمتد إليها لتعاونها فهى تنسف كل نشاط جماعى ، وهى بذلك تعتبر روحاً انفصالية تقوم على الأنانية . . . ولها مع ذلك بعض الفوائد فى استثارة النفوس الخامدة الضعيفة ، وذلك بما تثيره من قلق يحفز إلى العمل ولكن أى عمل هذا الذى تدعو صاحبها إليه . . ؟ إنه عمل بلا هدف ولا غاية . . وأى خير فى أن تجد عربة تائهة فتدفعها إلى الصحراء تجرى بلا هدف . . ؟

إن العمل الصادق لا يمكن أن يكون فى غنى عن المعاونة والانتفاع بالخبرة التى عاناها الآخرون وإذا كان هدف الوجودية إشعار كل إنسان بذاته ليدرك أنه موجود فالإنسان موجود بالطبع دون حاجة إلى أن يقرص نفسه ليتألم فيعلم أنه موجود ودون أن يضرب رأسه فى الحائط ليسيل دمه فيدرك أن هذا الدم دمه وإذن فهو موجود . . إن عمله يعلن له وللدنيا نوع وجوده وإلا فأين ذهبت إذن ملايين السنين التى مرت بالإنسان منذ وجد على الأرض قبل أن ينادى كيركجارد بالوجودية . . ؟ هذه الأجيال الطويلة التى مارس فيها الإنسان الوجود وبنى الحضارات وأوجد القيم ومارس الألم والأمل واليأس

والنجاح والنصر والهزيمة فى كل الصور والألوان ألم يكن هذا كله وجوداً ؟ أم أن الوجودية فقط أوجدت الإنسان على الأرض منذ مائة عام فحسب ؟

لقد كان الإنسان يمارس وجوده دون أن يحبس نفسه فى قمقم ويضع القمقم فى النار ليلتهب وتلسعه جدرانه فيصيح وسط النار إننى موجود لأننى أحس النار .

والوجود يجب أن يكون قائماً على تجنيد الإنسان لنفسه فى مشاركة المجموع فى دفع عجلة الوجود إلى الأمام فى الطريق الذى وضح لكل ذى عين أنه يؤدى بالبشرية إلى الخير العام وليس للوقوف ولا للرجوع إلى وراء أو الانتكاس . وإذا كانت الوجودية تحتقر العقل فهى إذن تخالف نفسها ذلك لأن الفكرة الوجودية سواء كانت سلبية أو إيجابية فهى فكرة قبل كل شىء صنعها عقل بشر أى أنها حركة عقلية .

إن الوجود متماسك تماسك الآلة ولكن الوجودية تفك أوصال هذه الآلة مسماراً مسماراً ومحوراً محوراً ، وترمى كل جزء فى ركن وتقول له أيها المسمار لقد أنقذتك لأنك كنت ضائعاً فى هذه الآلة لا شخصية لك فيها أما الآن فأنت مسمار لك شخصية ذاتية . . وذلك هو العدم لأن المسمار لا قيمة له إلا فى المعاونة على دوران الآلة والآلة هى مجموعة من المسامير وقطع الحديد ،

فلو تفككت فقد انعدمت وانعدم بالتالى كل جزء من الأجزاء فهو يستمد وجوده من وجودها .

* * *

والوجودية فى معرض الحديث عن الحب تقول إن الحب لا يجب أن ينتهى إلى زواج وقد تقدم الكلام عن هذا ، وهذه ولاشك جريمة إنسانية مهما خلع عليها الوجوديون من أسماء . والكلمات المستيرية التى تقول إن الخطيئة من طبيعة الإنسان فلا حرج عليه من ممارستها هى اتجاه هدام يخالف أى مبدأ إنسانى وأنا أتجنب أن أقول أى مبدأ دينى أو عقلى حتى لا يضع الوجوديون أصابعهم فى آذانهم فإن العفريت الذى يفرون منه هو الدين أو العقل .

لذلك أقول إنهم ليسوا إنسانيين بعد أن أعلنوا أنهم ليسوا مؤمنين ولا من أنصار العقل فماذا يكونون إذن ؟

ماذا يكون الذى يتحلل من نظام الأسرة التى ولد فيها .؟ الأبوين الذين أوجداه .؟ ولا يحترم المجتمع الذى يأويه ولا العقل الذى يحميه ولا النظام الذى يعيش فى كنفه وظله .

فهذا المجتمع أحاطه بكل نظم الأمان والاطمئنان ورعاه قبل أن يولد فلا يحق له أن يحاربه أو يقف منه بعيداً تحت تأثير فكرة سلبية أو على الأقل غير عملية .

نحن لا ننكر أن الإنسان يجب أن تكون له شخصية متميزة لا تذوب ولا تتلاشى وإنما يجب أن تنشأ هذه الشخصية فى الإطار الاجتماعى والأخلاقى المعترف به .

وإذا كانت الحياة الإنسانية كنهر ينساب من الأزل إلى الأبد وأن كل إنسان يولد فى سفينة تسير فى هذا النهر فإنه من الجنون أن يفكر أحد ركابها أن يعارض سيرها .

إننا لا نمارى فى وجود فكرة الإنسان ولكن وجوده هذا إنما يشبه وجود قطرة الماء فى النهر أو الثمرة فوق الشجرة وأن من عيوب النظرية الوجودية الفردية أن ما يراه الإنسان أنه حق قد يراه الآخر على نقيض ذلك لأنه لا توجد مقاييس مشتركة معترف بها .

وإذا كنا نناقش الوجودية من وجهة نظر الدين أو الأخلاق فليس معنى هذا أننا نقف جامدين فى تعصب ضد أى فكرة جديدة ذلك أن الدين الحق من المرونة بحيث يضم ويتسع ويخلع من تقديره على كل فكرة بنائية .

كما أنه ليس من القول الجدى ما يذهب إليه البعض من أن الوجودية قد تهدى إلى الإيمان ، ذلك أن الإيمان فكرة وعمل ، والعمل له تعليمات ونظم قررتها الأديان ولابد من الأخذ بها ليكون الإنسان مؤمناً ، فأنا لا أكون مؤمناً بحق الإنسان فى العمل ثم لا أعمل أو أحترف البطالة .

وقد سبق أن ذهبت فى بعض أقوالى إلى أن من محاسن الوجودية بجانب مالها من أضرار هى أنها تجند الإرادة الإنسانية

لتنفيذ فكرة فلو اعتنق الإنسان الفكرة الدينية المرنة أو الأخلاقية المثالية ثم ذهب يجند كل إمكانياته فى تنفيذ ذلك لأمكن أن نطلق على هذا الاتجاه اسم الوجودية الأخلاقية ولكنت على هذا الاعتبار أول راغب فى اعتناق مذهب هذه الوجودية .

فأنا لست متعصباً ولا جامداً فى نظرتى إلى الفكرة .

* * *

ولكن الواقع ينفر الإنسانمن أن يسكت عنها ذلك لأنها على هذا الوضع القائم نوع من الضلال البعيد ، تصور شخصين أحدهما يجد رغبته الوجودية فى أن يتجه شمالا والآخر جنوباً والجيش لا يكون قوياً إلا بمقدار تجميع جنوده فى اتجاه واحد مدروس من قبل وهذا لا يمنع أن يكون لكل جندى رتبته وشخصيته وفى هذه الحال سيزداد شعوره الوجودى لأنه يستمد قوته الوجودية من قوة الجيش فالوجود القوى يكون لجندى فى جيش قوى والوجود الضعيف يكون لجندى فى جيش ضعيف منحل مفكك .وكذلك المجتمع سواء بسواء ،

وهذه أيضاً هى روح الإسلام وروح كل دين .

فمن المحال إذن أن تكون الوجودية فكرة إنسانية تستهدف خير البشرية ، لأنها تخرج المجتمع والنظم المثالية من حسابها ، وتحبس كل إنسان داخل قوقعة مغلقة بالأنانية لتمارس من الداخل اتجاهاتها الفردية ، منتشية بالألم الذى ينعش قواها كما تنعش المخدرات من يتعاطاها ، والوجودية تحرص على

القلق . ولا يمكن مع القلق الصبر على البناء ؛ فلا يوجد عمل سليم تم تحت تأثير قلق محموم. فالأعمال الناجحة تؤدى فى شعور بالثقة والاطمئنان دون جلد النفوس بالسياط لتعمل فى ألم وخوف وقلق من السياط المتلقة . ولذلك فإن الوجودية لا تساهم فى بناء الحياة التقدمية لأنها بلا أهداف ؛ ولأنها تقف على البعد تطل من نوافذ القواقع على قافلة البشرية وهى تسير ؛ وقد تلعن بعض الأحداث أو تباركها دون أن تساهم فيها لأنها قررت تعطيل قوى الإنتاج البنائى . فالعقل تركته يتردل ويشيخ وشاخت عن المثاليات بجانبها بينما الإسلام يحث أنصاره على العمل (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله) إذا بالوجودية تجعل كل جهد غير شخصى جهداً ضائعاً بينما التفنن فى شذوذ الأزياء والارتماء على مقاعد الحانات والكباريهات قد يكون اتجاهاً وجودياً فالوجودية مسرحية هزلية لا تهدف إلى تسلية الجمهور وإنما يقوم بها ممثلوها تعبيراً عن نزعات نفوسهم.

ثم إن الوجودية متشائمة لا مستقبل لها لأنها لا تزرع الأمل فى النفوس فهى سرطان يمتص دم المجتمع ويهدده بالفناء دون أن تعطى شيئاً فى نظير ما يهيئه لها المجتمع من حماية بل هى تلعن ذلك المجتمع وتقطع اليد التى تحسن إليها فالإنسانية ليس فيها متفرجون وكل من لا يعمل لها فهو عدو لها .

الوجودية .. والتشاؤم

الوجودية ترى أن الإنسان خلق ليتعذب ؛ وأنه وجد نفسه وسط قطيع يساق بينما تلهب ظهوره بالسياط كلما توقف ليلتقط أنفاسه تحت أشعة الشمس الحارقة وفوق الشوك الذى يدمى قدميه .

وقصة سوزيف اليونانى تقول إن الآلهة كانت قد حكمت على سوزيف بأن يدفع أمامه حجراً إلى أعلا الجبل ؛ وكلما بلغ القمة انحدر الحجر إلى السفح فتأمره الآلهة بالعودة ليدفع الحجر إلى القمة من جديد ثم يعود الحجر فيسقط ويجرفه أمامه وتسيل دماؤه ويعود هو إلى دفعه دون أن يعرف لماذا يدفع هذا الحجر ولا لماذا كل هذا العذاب ... هكذا يقول وجودى مصرى .

ثم يجيب بأن الآلهة عذبته كل هذا العذاب لأنه أخطأ بينما يرى أن الإنسان الحر هو الذى يخطئ أما العبد فإنه لا يخطئ لأنه لا يختار ما يفعل وإنما يفعل ما يختاره له سيده .

* * *

والواقع أن هذه القصة بعيدة كل البعد عن حقيقة الحياة إذ يفهم منها أن الخطأ مقدس وأن عدم الخطأ رذيلة ؛ ولا يوجد دين من الأديان يعصم الإنسان من الخطأ وإنما عليه ألا يبحث عن الخطأ ويمارسه مختاراً راضياً وإنما إذا مارسه بسبب ضعف أو جهل ثم علم أنه أخطأ فمن الخير ألا يعود إلى اختيار الخطأ بل يعود إلى الحق . أى إلى الله فيجد الله تواباً رحيماً لا يحاسبه على الخطأ الذى تاب منه كما تفعل الآلهة فى قصة سوزيف الخرافى .

والإنسان لم يخلق كما يقول الوجودى ليقاسى العذاب ولا شىء إلا أن يدفع الحجر إلى أعلا ويسقط عليه الحجر ويجرفه إلى القاع فتلهبه السياط ليعود فيدفع الحجر من جديد . ويظل دائماً أبداً فى هذه الدوامة التى لا تنتهى من اللعنة الأبدية.

هذا هو التشاؤم الذى تخيف به الوجودية أنصارها من الله الرحمن الرحيم ، ومن الحياة ذات الألوان المتعددة التى تزخر بالحلو والمر ، وأن المر وجد فيها ليعرف الناس الحلو .

لم يخلق الإنسان ليصعد الجبل وهو يدفع الحجر ، وإنما خلق ليصعد الجبل أعلى مهل وروية وهو يمهد طريقه أثناء الصعود لمن يأتى بعده ويجد أثناء الصعود على الجانبين واحات وجنات تجرى من تحتها الأنهار ، وأشواك عليها حراس يطلبون إليه أن

يتجنب طريقها وهؤلاء الحراس هم الرسل والفلاسفة والتجارب الشخصية والناس فى طريق الصعود متعاونون فلن تسقط الأحجار إلا على رأس من يتجنب سبل الجبل الممهدة ويذهب وحيداً من وراء الحراس .

فالخطأ ليس لعنة أبدية ، وإنما درس وإرشاد ، والله لا يحاسب على الخطأ ولكن على الإصرار عليه ، فالإنسانية لم تظلم سوزيف وإنما سوزيف الوجودى هو الذى اختار أن يظلم نفسه .

وليس الحر كما تقول الوجودية هو الذى يخطئ وإنما الحر هو الذى إذا أخطأ يقول فى شجاعة إننى أخطأت ، ويجند إرادته للعودة إلى الحق فيكون وجودياً صالحاً لأن الحرية عمل وليست استسلاماً للرغبة لأن الاستسلام لرغبات الذات أمر سهل.

ألوان من الوجودية

تجادل الوجودية عن نفسها بمجموعة من التعبيرات الحادة المتعددة الجوانب التى تحمل أكثر من معنى والتى تفهم على أكثر من وجه كأنما تشعر بضعفها عن مواجهة الحقائق فتتوارى وراء هذه التأويلات فأنت تسمعها تردد كلمات الذات والقلق والمسئولية .

والذات هى المحراب الكبير الذى تحوم حوله المعانى وتفرش له الطرق وتحرق له البخور ، هذه الذات يقول عنها الوجودى إنها تائهة فى خضم الحياة اليومية الرتيبة ، فيجب عزلها لتتعرى فى عزلتها عن نفسها على حقيقتها بلا رتوش ولا زخرفة ، وعليها بعد ذلك أن تهاجر من دنيا الناس إلى دنياها ، وبذلك تحطم القيد الذى ظلت ترسف فى أغلاله زمناً طويلا وتصبح إلهاً لا يعرف الرحمة فى تنفيذ أهدافه ، وبذلك تتحقق معجزة الوجود .

ويقول جان كانابا فى نقده للوجودية . إنه لا يمكن تغطية النزعة الإنسانية بالفلسفة الوجودية لأن ذلك العمل لن يكون والحالة هذه إلا تمويهاً ولكى تكون النزعة الإنسانية صحيحة يجب أن يكون هدفها الإنسان نفسه ، الإنسان المطلق أما الوجودية فتجعل الإنسان فى خدمة الذات أى أنها تعدم

الإنسانية وتسميها وجوداً .

* * *

والمسرحيات والقصص التى يؤيد بها « سارتر » الاتجاه الوجودى الحديث تدور كلها حول إظهار الحيرة والاضطراب : إزاء عالم يقال إنه خلق بلا سبب ؛ وإنه تيه مطلق والإنسان عليه فى هذا التيه أن يكتشف ذاته . وحبكة كل قصة هى فى هذا الاكتشاف وسد المنافذ أمام الإنسان حتى لا يشترك فى أى عمل عام أو ذى فائدة جماعية وتثبيط الهمم نحو أى حركة بناء ، إذ ما معنى البناء فى عالم غير موجود ! ؟

وكيف تترك الموجود فعلا وهو الذات لتعنى بما هو غير موجود وهو المجتمع وتنهى القصص والمسرحيات الوجودية دائماً بأنه لا خير فى عمل شىء .

* * *

وبينما نجد أن أبسط مبادئ الحكمة تستهدف إيجاد حل لكل مشكلة من مشاكل الإنسان إذا بالوجودية فى يأسها التام ترى أنه لا خلاص للإنسان من مشاكله وأنه لن يستطيع أن يصنع شيئاً فالإنسان مقضى عليه بالفشل والخسران ما دام على صلة بالمجتمع ذلك لأن المجتمع كالبحر تأكل أسماكه الكبيرة أسماكه الصغيرة .

والمجتمع بناء مفكك منهار وتضم هذه الأجزاء فى قهر وإرغام مظاهر البطش والجبروت فالإنسان على هذا الوضع فى خسران دائم ولعنة أبدية

* * *

ونظرات الوجودية إلى التاريخ

هى أنه لا وجود للتاريخ . لماذا ؟ وكيف ؟ لأن التاريخ مرآة للمجتمع وقد صنعته البشرية على هواها فى صور شتى ، والعالم كله باطل الأباطيل فهو كساقية جحا التى تأخذ من البحر وتلقى فى نفس البحر . وبينما يقول الوجودى الكبير « سيمون دى يوفوار » إن الإنسان مقضى عليه بالإخفاق فى كل شىء إذا « بسارتر » يقول إنه قد يحدث أحياناً نجاح وقتى نسبى فى حالة تغلب وعى ذاتى ناضج على سواه .

أى بصريح العبارة إنه بالاتجاه الوجودى يمكن للإنسان أن ينقذ بعض ما يمكن إنقاذه إذ يحقق الوعى الذاتى له ما يعجز عنه المجتمع فى عالم خلق ليكون خسراناً فى خسران .

ولا تعجب حين ترى بالرغم من ذلك أن الإنسانية حققت فى كثير من أطوارها كثيراً من الأمور المثالية والقيم النافعة وذلك لأن الوجودى لن يعنى بهذه المثاليات والقيم ولن يعتبرها إنجاحاً أو كسباً إذ ما قيمة هذه الإشعاعات الضئيلة فى عالم

كله باطل الأباطيل ولا منفعة تحت الشمس فالكون يدور حول نفسه وما تحسبه أنت تقدماً ليس هو إلا تغييراً أو اختلالا فى الوضع أثناء الدوران .

ولعل هذا قريب من مذهب البراهمشاريا عند الهنود .

فهذا المذهب الهندى هو أن فساد الوجود كله قائم على الغريزة الجنسية فلو تخلص الناس من الدافع الجنسى لتخلصوا من كثير من الشرور ، والطريق إلى ذلك هو تجنب الطعام الزائد عن الحاجة ، لأن هذا الزائد هو الذى يريد أن ينصرف عن طريق الجنس ، فلو أجعت نفسك فإنك تميت الدافع الجنسى ، ومن أجل هذا كان غاندى يطعم قليلا من اللبن وبضع بلحات يقمن أوده ولا يهيجن الجنس .

وقد تسأل فى هذا المضمار سؤالا هو ما مصير البشرية إذا أضرب الناس رجالا ونساء عن التناسل ؟

والجواب عند الهندى البرهمشارى

هو أنه لا شأن لك بهذا فإنك لم تعط على نفسك صكاً أنك مسئول عن حفظ النوع .

وكذلك الوجودى يغل يده عن أى منفعة أو نشاط جماعى لأنه لا يعطى المجتمع شأناً إيجابياً ، بل هو عنده كما تقدم خسران وضلال فعليك ذاتك ، عليك نفسك فحسب وهذا

هو البريق الذى يخطف فى الوجودية أبصار الشباب والمتعبين فيجدون فى التحلل من الواجب عبادة مقدسة فى محراب الذات .

فالمرأة إذا انصرف عنها زوجها لتحصيل رزق من أجلها وكانت وجودية وأحست بسبب انصرافه عنها جوعاً عاطفياً ، فلا حرج عليها أن تشبع هذا الجوع ، والوجودية تشجعها على هذا المنزع فى لحظات الطيش وسيطرة الهوى وفى اللحظات التى تجند النظم الاجتماعية والأخلاقية والدينية نفسها لإنقاذ الإنسان منها وهدايته سواء السبيل ، ولكن الهاتف الوجودى يصرخ فى أعماقها إنك لم تخلقى من أجل كبت العاطفة وحبس الرغبة بتأثير ما يزعمون أنه الواجب ، إن وجودك هو كنزك الأوحد فلماذا تدفنين هذا الكنز تحت أحجار القبور الاجتماعية .

وتنتهى بأن تنطلق مع هواها . . مع وجودها . . مع ذاتها تحطم قيد الزوج والولد وما يسمى الشرف . وهذا هو لون من القصص الوجودى .

* * *

لقد كنت أود أن تكون مهمة الوجودية عكسية لما سبق فيهتف الهاتف الداخلى بالحقائق التى تصير إليها الأمور بعد أن تكتشف هذه المرأة حقيقة الهوة التى انهارت فيها وبعد أن تندم على ضياع زوجها وشرفها وأولادها

* * *

ويبدو أن هذه هى الحقيقة التى ذهب إليها الكاتب

المصرى الوجودى فى كتابه « الوجودية » فاتخذ من زليخا امرأة العزيز مثلا للوجودية حين راح الهاتف الوجودى يصرخ من أعماقها فى وجه يوسف . هيت لك — بعد أن غلقت دونه الأبواب ولم يعلق هذا الكاتب على موقف يوسف الصديق منها لامتناعه عن ممارسة ذلك الفعل فإذا كانت زليخا وجودية بالنسبة لنفسها فلماذا لم يعتبر يوسف وجودياً لأنه أطاع الهاتف المنبعث من أعماقه والذى يعصمه من طاعة النفس والهوى ؟

إن يوسف الصديق ليس وجوديًّا . . !!

وامرأة العزيز وجودية مائة فى المائة .

وحسب الوجودية هذا فإن القول يغنى عن كل تعليق .

* * *

والوجوديون يعترفون بأن الوجودية قد تنتهى بصاحبها إلى التعب أو العذاب ولكنها تقول بأنه لا مفر من ذلك فإن هذه هى الضريبة التى يتحملها الإنسان ليكون حرا، على أن هذا الذى تسميه حرية ما هو فى واقع الأمر إلا خضوعاً مطلقاً لأهواء النفس وطاعة للصنم القابع فى داخل الذات .

والوجودية لا تحفل بالتاريخ لأنها لا تعترف به كما ذكرنا ولأنه نظام اجتماعى يسجل نفسه متطوراً وفقاً لفروض اجتماعية رتيبة أو فجائية ولكنها أى الوجودية تعترف بوجود أناس يصنعون التاريخ بأن يملوا عليه اتجاهاتهم الذاتية وهى قيود تفرض على الغير

الوجودى . . والحياة العامة

الوجودى لا يذكر الحياة الاجتماعية تحت اسم المجتمع ، إنما يطلق عليها الناس الآخرين ذلك لأن الحياة عنده مجرد ناس كل منهم يدور فى فلكه منطوياً على ذاته وفى داخله مجموعة من الرغبات المتناقضة التى تمزقه وتدعوه إلى محاربة سواه فهى إذن تجسيم لمركبات النقص وازدراء للإنسان .

ومن الطبيعى أن الوجودى لا يسم نفسه بهذه السمات ، وهذا الشعور لابد أن يصاحبه احتقار للغير ، وهذا الاحتقار يزداد كلما ازداد الشعور بالذات وازدادت تبعاً لذلك عزلته الاجتماعية وهذا الوضع سينشأ عنه استعلاء للأنانية وسيطرة للكبرياء الذاتية وجمود للقلب حتى لقد يكون من الخسة أن يساعد إنساناً آخر أو يعينه لأن هذا معناه إقحام نفسه فى وجود غيره وينتهى الأمر إلى التخلى عن كل صراع أو نضال يرجى من ورائه تحويل الإنسان ولو قليلا عن محيط الدائرة التى حبس نفسه فيها ليدور فى محيطها مغمض العينين يظن أنه

منطلق فى الفلك الوجودى ، ولن يهتم الوجودى بالبحث عن سند دينى أو عقلى أو اجتماعى يبرر به تصرفه .

• • •

كما أن الوجودى لن يتحد مع غيره من الوجوديين ، إذ لا صلة تجمع بينهم كهذه الصلة التى تجمع أبناء النادى أو الهيئة أو النقابة الواحدة ، إنما هم مجرد ناس كل منهم حبس نفسه داخل قوقعته ، ولذلك تعلن الوجودية عن نفسها إنها ليست ديناً ولا فلسفة ولا مذهباً ، ولا هيئة ولا شيئاً مما يقرب من ذلك ، وعلى هذا فإنه ليس للوجودية وصايا ولا نصائح ولا صلاة ولا ارتباط بشىء ما ، فهم والحق يقال يطلقون على أنفسهم اسماً يخالف حقيقتهم ، فإن هذا نوع من الموت الاختيارى .

ولست فى ذلك مغالياً لأن التخلى عن الكفاح فى سبيل المجموع هو تخل عن الحياة ، ثم إن العزلة سلاح يطعن به الاعتزالى نفسه ويلزم أن يحمى المجتمع على هذا الأساس الوجودى من نفسه ، فإن المريض ليست له حرية ترك نفسه بلا علاج مع ما يسببه للغير من عدوى ، وإذا أراد إنسان أن ينتحر فإن المجتمع يحاول أن يحاسبه ويمنعه من ذلك غير ملق بالا إلى صخبه وادعائه الحرية فى الانتحار ، ذلك لأنه مدين

بوجوده لهذا المجتمع فيجب أن يعمل من أجله .

* * *

ولما كانت الوجودية تدعو إلى العزلة فهى على هذا الأساس تدعو إلى الإضراب عن العمل من أجل الحياة ، وهى حرية سلبية لا يجب أن يترك بريقها يخاب أنظار الكسالى والمنحرفين والذين يعانون مركبات نفسية مختلفة .

إن الوجودية يمكن أن تسمى العاطل الشرير قديساً وجودياً ، وسارتر يختتم نشيده فى تقديس الذات والانفرادية بقوله إن من لا يستمع إلينا ولا يقبل حرية إطلاق النفس من قيودها إنما هو جبان رعديد .

* * *

فأنت ترى أن الحرية الوجودية هى أسطورة خرافية هدامة تعوق الإنسان عن الارتقاء على أى صورة من الصور ، بل تقدس التفاهات وتشد الإنسان باستمرار إلى الانهيار .

إن الحرية التى تنادى بها الوجودية هى عملية عزل مستمر وانفصال عن المجتمع الإنسانى وما دامت الوجودية ترى أن الإنسان مقضى عليه حتما بالفشل والخسران وأن الوجود نفسه باطل الأباطيل فما معنى هذه الحرية التى تنادى بها إلا أن تكون دعوة إلى ممارسة الانحطاط باعتباره الصفة الملازمة للوجود .

فى الأدب الوجودى

لما كانت الوجودية بلا تعاليم ولا وصايا وليس لها دستور مكتوب فإن المنقب وراء هذا المذهب لا يجد ما يروى غلته إلا فى الأنماط المختلفة من القصص الوجودى حيث يعنى الفلاسفة الوجوديون ببث أفكارهم فى هذه القصص ذات الطابع العجيب وكلها تدل دلالة واضحة على عدم إنسانية هذا المذهب على الإطلاق .

ذلك أنه ما دامت هذه القصص تعبر عن الأدب الوجودى فإن هذا التعبير يكاد ينحصر فى ألوان شاذة من الناس تأتى أفعالا شاذة كما يتضح من قصة الغريب تأليف ألبير كامو .

والقصة استعراض لحياة إنسان وجودى . حياة ضائعة من أولها إلى آخرها ، وإن كان صاحبها قد ذهب منطلقاً من كل قيد يعب عبًّا من شهواته ولا يبالى موت أمه ولا يبالى حتى بالجريمة نفسها حين يرتكبها بلا سبب ولا موجب . . تلك هى شخصية « مورسو » بطل القصة الذى كان شعاره أخذ الحياة بلا مشقة وفى استهتار مع عدم التقيد بأى قيد اجتماعى أو إنسانى .

إن هناك بعض النقط التى يجب أن توضع على حروف

هذا المعنى ، إن ألبير قد أسمى قصته تلك بالغريب ، وهو يعنى — كما يبدو — أن بطل قصته « مورسو » عاش غريباً فى مجتمع لا يؤمن بتقاليده .

فماذا كان يريد مورسو بطل قصة الغريب ؟

هل كان يريد من المجتمع أن يسجد لوجوديته فلا يؤاخذه على ما جنت يداه ! ! ؟

لقد عاث مورسو فى الأرض فساداً وعاقر جميع الموبقات وانتهى إلى أن قتل إنساناً فسيق إلى المقصلة فهل أحس ندماً أو اتجه إلى خالق الوجود يطلب المعونة ؟ إنك ترى الجواب فى قول بطل القصة فى نهايتها .

« لقد كنت على صواب — ولا أزال على صواب » .

فما هو هذا الصواب الذى يتمسك به ذلك البطل الوجودى ؟

فلنذهب إذن مع القصة قليلا لنستمع إليه يقول فى البداية :

اليوم ماتت أمى . . أو أمس . . لا أدرى لقد تلقيت برقية من الملجأ نصها « أمك ماتت . . الدفن غداً . قلوبنا معك »

وكانت أمه فى ملجأ العجائز فى « مارنجو » على مسافة ٨٠ كيلومتراً من بلدة الجزائر فيضطر إلى السفر لشهود جنازتها فيذهب إلى الملجأ متأففاً مما عانى من وعثاء الطريق، ضيقاً صدره من العجائز المرضى فى الملجأ ، وهم يتحدثون فى

جماعات صغيرة ، وعند باب الغرفة ، التى سجن فيها جثمان أمه غادره المدير قائلا « إننى أتركك يا سيد مورسو فإننى أفترض أنك تريد أن ترى أمك . . وهنا يصف مورسو حقيقة شعوره فيقول . . فوقفت دون أن أقول شيئاً ، فيعود المدير قائلا سأكون فى مكتبى وتحت تصرفك ، ولقد حُدد الدفن مبدئياً فى الساعة العاشرة صباحاً إذ اعتقدنا أنك تستطيع هكذا أن تقضى الليل بجانب الراحلة ثم يقول المدير كلمة أخيرة ، يبدو أن والدتك قد أعربت كثيراً لزملائها عن رغبتها فى أن تدفن وفقاً للطقوس الدينية .

* * *

وهنا يظهر استياء مورسو من أن تفكر أمه فى أن تدفن وفقاً للطقوس الدينية فهو يقول لنفسه . . إن أمى لم تفكر أبداً طيلة حياتها فى الدين . . ثم يصف مورسو كيف قضى ليلته إلى جانب أمه .

« دخلت الغرفة وكانت مضيئة جداً . . مطلية بالجص ، مشتملة على قطعة كبيرة من الزجاج أعدت للأوانى . وعلى بضعة كراسى وحوامل خشبية قد وضع على حاملين منها فى وسط الغرفة تابوت عليه غطاؤه ، وبالقرب من التابوت كانت هناك ممرضة عربية فى زيها الأبيض قد غطت رأسها بمنديل

زاهى اللون ، وفى هذه اللحظة دخل البواب من ورائى وقال فى شىء من التعثر . . يجب أن أفك مسامير التابوت حتى تستطيع أن تراها ، وعند ما اقترب من التابون منعته .

فقال لى . . ألا تريد ؟

قلت . . كلا

فتوقف وشعرت بالارتباك إذ أننى أحسست أنه ما كان يجب أن أقول هذا . .

وبعد لحظة نظر إلى وسأل : لماذا ؟

ولكن بدون لوم ، وكان لا يبغى سوى أن يعلم فقلت : لا أدرى وعندئذ أخذ يعبث بشاربه الأبيض

* * *

وتمر ساعة من هذا الليل وهو فى غرفة أمه المسجاة التى لم يشأ أن يرى وجهها قبل أن يواريها التراب ، وهو يشعر بالضيق والقلق . . « وأخذ زنباران يطنان على لوح الزجاج وأحسست بالنوم يأخذنى فقلت للبواب دون أن ألتفت إليه ، أمنذ أمد طويل وأنت هنا ؟ فأجابنى على الفور منذ خمس سنين » .

* * *

ويدع الجثمان المسجى ويذهب فى ثرثرة طو يلةمع البواب

لقطع الوقت فيخبره البواب عن كثير من تاريخ حياته وتهم زوجة البواب أن تمنع زوجها من الاسترسال لوقار الموت ؛ ولكنه يقول لقد وجدت أن ما يقوله البواب حقيق وشيق .

« ودخلت الممرضة وقد تكاثف الليل فأدار البواب مفتاح الكهرباء وبهر عينى انبثاق النور . واقترح على البواب أن يحضر لى كوباً من القهوة باللبن ، ولما كنت أحبها كثيراً فقد قبلت ؛ وأحببت عندئذ أن أدخن ولكنى ترددت لأنى لم أكن أعرف ما إذا كنت أستطيع أن أفعل ذلك أمام أمى ؟ وفكرت فوجدت أنه ليس لذلك أى أهمية . »

* * *

وانتهى به الأمر إلى مشاركة البواب التدخين أمام الجثة حتى أنهما بعد قليل من الوقت وضع كل منهما مقعداً على جانبى التابوت وكل منهما فى مواجهة الآخر وراحا يثرثران فأغرى ذلك الممرضة أن تنسى هى الأخرى الوقار الواجب للموت فتشغل نفسها بأشغال الإبرة .

* * *

وحين ينتهى الليل تحس بسخرية مورسو ممن جاءوا لمشاركته فى الجنازة وقد احتملوا كل عناء رغم تقدم السن بهم وما حل بأكثرهم من مرض فهو يتأمل وجوههم فى سخرية قائلا :

وعندما جلسوا نظر أغلبهم إلى وهزوا رؤوسهم فى ارتباك ، فى حين أكلت أفواههم الخالية من الأسنان شفاههم وهم يهزون رؤوسهم ، وأحسست إحساساً مضحكاً وهو أنهم جاءوا ليحكموا على .

* * *

فأنت ترى أن هذا الوجودى لا يقيم وزناً لما تعارف الناس على احترامه ، لقد اشمأز من تمسك أمه بأن تدفن دفناً دينياً وقد ضاق ذرعاً بقضاء ليلة إلى جوار جثمانها فراح يقطع الوقت بالثرثرة مع البواب وبالتدخين وهو يتعجل على أى صورة الانتهاء من هذه الطقوس البغيضة ليعود طليقاً إلى أهوائه . . إلى وجوديته ! . . إلى أنانيته .

* * *

وإنك لتراه فى منتصف القصة حين يجلس إلى صديقه « سالامانو » الذى راح يبدى حزناً شديداً على كلبه الذى يموت فيتحدث سالامانو فى أسى عن هذا الكلب الذى كان له صديقاً ويأسى عليه فى ساعة موته فيصفه بأنه كان طيباً .

وكأنما كان سالامانو يريد أن يسمع كلمة عزاء من هذا الوجودى القاسى مورسو . . ولكن كيف يشعر مورسو بالحزن على كلب وهو الذى لم يحس أى حزن على موت أمه . ! ؟

إن سالامانو يريد أن يستجديه كلمة عزاء وكأنما ظن المسكين أنه إذا مس حديث الموت وذكره بأمه فلربما انفجرت فى قلب مورسو أحاسيس الرثاء على كل من يموت إنساناً كان أوحيواناً ، فيجود على سالامانو بكلمة فانظر إلى مورسو وهو يقول :

« قلت لسالامانو إننى متألم لما حدث لكلبه فشكرنى وقال لى « إن أمك كانت تحبه كثيراً . . وعندما كان يتكلم عنها كان يدعوها « بأمك المسكينة » ولقد أفترض أنى أشعر حتما بشقاء كثير منذ موتها ، فلم أجب بشىء .

* * *

وإننى لأحس بأن أى تعليق قد يقلل من بشاعة الاحتقار الوجودى للأم ولكننا نعود إلى بداية القصة حين انتهت مراسم الجنازة لنرى شيئاً عجيباً يحدث فى اليوم التالى ولما تجف دماء أم مورسو فى قبرها استمع إليه يقول :

كان من الصعب على أن أنهض من سريرى إذ كنت متعباً بسبب ما لقيت بالأمس ، وعندما كنت أحلق ذقنى تساءلت ماذا سأعمل اليوم ؟ ذلك أنه كان قد حصل على يومى أجازة لمناسبة الوفاة وقد قضى اليوم الأول فى مراسم الجنازة وفى اليوم التالى أحس بالرغبة فى اللهو .

« أخذت الترام إلى حمام الميناء وهناك اندمجت فى الجمهور ، وكان هناك شبان كثيرون ووجدت « مارى كاردونا » تستحم وهى فتاة كانت تكتب على الآلة الكاتبة فى مكتبى وكنت قد اشتهيتها فى ذلك الحين وهى أيضاً على ما أظن كانت تشعر بما أشعر . ولكنها تركت العمل بعد قليل ، ولم يتح لنا الوقت ، وفى أثناء الاستحمام ساعدتها على اعتلاء خشبة تساعد على العوم . . وعندئذ لمست ثدييها وكنت لا أزال فى الماء عندما كانت نائمة على بطنها فوق الخشبة فالتفتت نحوى وكان شعرها فى عينيها وهى تضحك فصعدت على الخشبة بجانبها وكان الجو جميلا وبينما كنت أمزح ألقيت برأسى إلى الوراء ووضعته على بطنها فلم تقل شيئاً ، وبقيت هكذا ، وكانت السماء فى عينى وكانت زرقاء مذهبة وكنت أحس ببطن مارى وهو يضطرب تحت قفاى فى لطف ومكثنا وقتاً طويلا على الخشبة ونحن نصف نائمين . وعندما اشتدت حرارة الشمس غاصت فى الماء فتبعتها ولحقت بها ووضعت يدى حول خصرها وعمنا معاً . . وضحكنا معاً .. وعندما لبسنا بدت عليها أمارات الدهشة والحزن ، إذ رأتنى أضع فى عنقى رباطا أسود ، وسألت عما إذا كنت فى حداد ؟

فقلت لها — إن أمى قد ماتت . .

ولما أرادت أن تعرف تاريخ موتها .

أجبت أمس . .

فرجعت إلى الوراء قليلا . . ولكنها لم تبد أى ملاحظة ، فرغبت فى أن أقول لها ليس الذنب ذنبى » .

* * *

أنظر إلى حديث إنسان وجودى عن أمه التى ماتت بالأمس وإلى التصرفات الوجودية التى تكشف النقاب عن حقيقة هذه الدعوة العجيبة .

لقد كان يود أن يقول لها إن موت أمه ليس ذنبه ، لأنه كان يفضل أن لا يحاط علماً بذلك . فلتمت أو فلتذهب إلى الجحيم دون أن تعطله عن ساعة من ساعات المتعة ، إنه ليس ذنبه أنها قد ماتت بالأمس وأن صديقته التى يشتهيها قد ترى فى ذلك حائلا دون الاستمتاع .

* * *

وعند المساء كانت مارى هى الأخرى وجودية فهو يصف ذلك قائلا « كانت قد نسيت كل شىء فذهبنا إلى السينما وكانت الرواية مضحكة . بين حين وآخر . على الرغم من سخافتها وكانت مارى تضع ساقها على ساقى . وكنت أداعب ثدييها وقرب نهاية الحفلة قبلتها ولكنى أسأت التقبيل ، وعندما

خرجنا أنت معى »

* * *

وهكذا قضى ذلك الوجودى اليوم الثانى لموت أمه ثم يقول عن نفسه ولما استيقظت فى الصباح كانت مارى قد رحلت وتذكرت أننا فى يوم الأحد فضايقنى ذلك ، إذ أننى لا أحب هذا اليوم . . . لماذا لا يحب هذا الوجودى يوم الأحد ؟

لأنه يوم الله . . يوم العبادة . . . يوم الدين .

* * *

وعندئذ تقلبت فى سريرى وتشممت رائحة الملح التى تركها شعر مارى فى الوسادة ونمت حتى العاشرة ثم دخنت بعض السجاير دون أن أغادر السرير حتى الظهر ولم أكن أريد أن أتغذى عند « سيلست » كعادتى لأنه من غير شك سيوجه إلى أسئلة وأنا لا أحب ذلك .

* * *

كان يخشى أن يسأله عن موت أمه

لقد فسق فى يوم وفاتها . وأغوى فتاة . وكره يوم الأحد لأنه يذكره بالله ، حتى ذكرى أمه كره معها أن يذهب إلى الرجل الذى سيتقدم إليه بكلمات العزاء فيذكره بحزن لا يحسه.

* * *

وتمر شهور . . وشهور . . وتتقدم أحداث قصته مع مارى فيتاح لنا أن نعرف رأى الوجودى فى الزواج . فقد عرفنا نظرته إلى أمه وإلى الله وإلى الأمانة المفروضة فى محافظة الإنسان على الأعراض .

لقد استمرت علاقته بمارى . . . إنه يقول :

وفى المساء جاءت مارى تبحث عنى ، وسألتنى عما إذا كنت أريد أن أتزوج منها ؟ فقلت إن هذا لا يهمنى وتستطيع أن تتمه إذا كانت تريد ، فرغبت عندئذ أن تعرف ما إذا كنت أحبها فأجبت بمثل ما أجبت به من قبل . وهو أن هذا ليس له معنى وإننى لا شك لا أحبها .

* * *

أنظر إلى حقيقة نظرة الوجودى إلى الجنس الآخر . . إنه يشترى فقط — أما الزواج فليس له معنى ، فإذا تم أو لم يتم فسيان لأنه لن يلزمه بشىء ، إنه كالمفلس الذى لا يملك شروى نقير ، ويطلب إليه أن يمضى صكاً بمليون جنيه فيفعل ساخراً . لا يهمه الزواج أو عدمه ، ولكنه إجراء يجعل الفتاة تستمر تحت سلطان شهواته إذا كانت تريده ، وهو يعترف لها بأنه لا يشعر نحوها بالحب . لسبب بسيط وهو أن الوجودى لا يعرف ما هو الحب . . ولا يعترف به ويراه ضعفاً لأنه سيشده إلى

تبعات وقيود وقد سبق تحليل الفكرة الوجودية نحو الحب فى فصل سابق وها نحن نرى التطبيق فى القصة ، قصة الغريب الذى ظن أنه مظلوم فى هذا المجتمع ولذلك فهو يعيش غريباً فيه كالمجرم الذى يرى أنه غريب فى مجتمع محصّن ضد الجريمة

ولما قال السيد الوجودى مورسو لمارى أنه لا يحبها قالت ولماذا إذن تتزوجنى ؟ فيجيب أنه ليس لذلك أهمية وأننا نستطيع أن نتزوج إن شاءت على أنها هى التى تطلب ذلك فعقبت على ذلك بأن قالت بأن الزواج شىء خطير .. فأجبت .. كلا »

* * *

إنه لا يراه خطيراً على الإطلاق لأنه لن يحس بتبعاته ولن يعترف بعواقبه . إنه مجاملة . أو شىء يحتال باسمه للمتعة إلى الحين الذى يريد أن يتسلل منها حرًّا بأى طريق شاء .

* * *

وتستمر القصة حتى نرى مورسو فى ضيافة أحد أصدقائه ويحدثه هذا الصديق بأن أعرابيًّا قد تعارك معه وهو لذلك يريد أن يحمل مسدسه حتى يقتل به ذلك الأعرابى إذا هم أن يدخل معه فى عراك مرة أخرى فيحمل عنه مورسو مسدسه فى يوم قائظ يثير أعصابه فإذا بالضيق يشتد به فيقتل الأعرابى فى

فورة عصبية بلا موجب فى لحظة تسرع واندفاع وعدم تبصر .

وحين يحاكم لا يندم على شىء .

وحين يساق إلى السجن يرى أنه غريب فى عالم مقيد بالتقاليد وحين ينتهى الأمر يردد ما سبق أن أشرنا إليه لقد كنت دائماً على صواب . وسأظل على صواب » .

فعقوق الوالدين, والتنكر للطقوس الدينية والسخرية ممن جاءوا يعزونه ويجاملونه والفسوق الفاجر فى اليوم التالى لوفاة أمه والاعتداء على الأعراض والتهوين من قيمة الروابط الاجتماعية والحياة الزوجية حتى القتل بلا مبرر . .

كل هذا يراه الوجودى « مورسو » صواباً . ذلك لأنه قد مارس وجوده وأطاع الهاتف النفسى فلم يشعر بوطأة القيود الاجتماعية وإنما أحس بزهو تحطيمها ، والتحرر منها ووجد فى ذلك سعادة كالراحة التى يجدها الأجرب حين يحك جلده ويدميه.

والعجيب أنك تقرأ قصة الغريب وهى قصة طويلة يتصارع فيها نشاط أشخاص كثيرين فتعجب من السلبية المطلقة التى تتسم بها كل شخصياتها فلا تجد فرداً واحداً يمارس وجوداً شريفاً من أى زاوية إنسانية فهم بين فاسق أو مخمور لا يفيق أو قواد أو أفاق فإذا قلنا إن المؤلف يرسم شخصيات وجودية

كان لنا العذر حين نقول إن خلو الوجودية من الوصايا هى التى تدعو أفرادها إلى هذا الضلال البعيد ، وحين نقول إن الوجوديين هم أفراد يستهويهم الشذوذ ويجدون فى الخروج عن نظم المجتمع تنفيساً عن كبت شديد .

* * *

ألسنا على حق إذن حين نرى أن الوجودية تتلخص فى طاعة هوى النفس والخضوع لسلطان الغرائز ! ! ؟

ألسنا على حق أيضاً حين ننتهى إلى أن الشيطان نفسه لو أراد أن يضع لأنصاره منهاجاً لما أضاف إلى الوجودية جديداً ؟

إن الجواب الذى قد يدور فى أذهان بعض الوجوديين أن « ألبير كامو » إنما يصور اتجاهاً يريد أن يثبت به أن الحياة تبعث الحيرة والاضطراب إزاء عالم يرى الوجودى أنه خلق بلا حكمة ولا سبب وأنه تيه مطلق على الإنسان أن يحتمل فيه الآلام فى سبيل اكتشاف ذاته . . . إن الوجودية تسد المنافذ التى تأتى منها الأشعة الهادية . . أشعة الدين . . . والعقل .. والاتجاهات الإنسانية.. فما دام الوجودى يسىء الظن بكل هذا ويحطم كل مصابيح الأنوار التى تنير له الطريق فهو سيزعم والصواب ليس فى جانبه أنه غريب فى مجتمع يراه

على حقيقته ضالا بلا حكمة وليست له غاية .

إن الوجودى هو الذى اختار أن يعيش غريباً فى مجتمع متماسك حكيم ؛ إن الأدب الوجودى يريد أن يثبت دائماً أنه لا خير فى عمل شىء وهذا هو الضلال البعيد .

وبذلك يجد الوجودى مبرراً فى عدم المساهمة فى أى عمل بنائى منظم لأن الإنسان مقضى عليه بالفشل والخسران إذا وضع يده فى يد المجتمع الذى يشبه عنده البحر تتطاحن أسماكه ويأكل القوى منها الضعيف .

ولذلك كان مورسو الوجودى فى قصة الغريب يصيح بأن آثامه التى مارسها كان فيها على صواب .

ولعله من المفيد أن نذهب مع القصة قليلا فنشهد مورسو ساعة محاكمته لنرى أى عواطف هذه التى تجيش بنفس المقدم على النهاية ؟ أهى عواطف الأسى على ما أنزل بالناس من أذى ورغبة صادقة فى استئناف حياة جديدة ذات طابع جاد ؟

أن هذا ما يحدث غالباً حين يتورط الإنسان فى إثم أو حتى حين يسترسل الإنسان فى عماء عن تقدير الحقائق التى يراها ثم تنقشع الغشاوة عن عينيه .

إن موقف مورسو يوم محاكمته ليعطينا فكرة عن حقيقة

النظرة التى ينظر بها الوجودى إلى الحياة ، وإلى الناس ، وإلى ما قدمت يداه ، إنه يقول كما جاء فى ترجمة الأستاذين السيد عطية محمد ومحمد الإمام للقصة .

* * *

من الشيق أن يسمع الإنسان القوم يتحدثون عنه ولو كان على مقعد اتهام وأستطيع أن أقول إنه فى أثناء مرافعات المدعى والمحامى جرى حديث كثير عنى ، بل لعل هذا الحديث كان أكثر من الحديث عن جريمتى .

ثم يذكر بعض ما جاء على لسان الدفاع ، حتى ينتهى إلى قوله :

. . . ولم يدهشنى ولم يثر انتباهى إلا بعض أقوال أو حركات أو فقرات خطابية فى مرافعات المدعى وكانت فكرته — إن كنت قد أحسنت الفهم — تقوم على أنى ارتكبت جريمتى مع سبق الإصرار ، ومهما يكن من شىء فقد حاول إثبات ذلك وقال : « لسوف أبرهن على ذلك أيها السادة وأبرهن عليه مرتين : أولا تحت الضوء الواضح للحقائق ، وثانياً تحت الضوء الغامض الذى استمده من دراستى لهذه النفس المجرمة » .

وبناء على هذه الأقوال لخص الأحداث منذ موت أمى ذكر المحكمة بعدم حساسيتى وبجهلى لحقوق أمى وباستحمامى

مع امرأة فى اليوم التالى ، وبالخيانة ورواية فرناندل الهزلية ، وأخيراً عودتى بمارى ، وهنا لم أفهمه فى الحال لأنه قال مع « عشيقته » لأنها كانت بالنسبة إلى مارى . . . وبعدئذ تناول قصة ريموند ، فوجدت أن طريقته فى النظر إلى الأحداث لا يعوزها الوضوح إذ كان ما يقوله معقولا لقد كتبت الخطاب متفقاً مع ريموند لكى أجذب إليه عشيقته وأهيئها لمعاملة قاسية مع رجل ذى خلق مشكوك فيه ، وأثرت بالشاطئ خصوم ريموند فجرحوه وعندئذ طلبت مسدسه وعدت وحدى لكى أستخدمه . وقتلت العربى وأنا أنوى ذلك ، وانتظرت لكى أكون متأكداً من أن العملية قد تمت ، ثم أطلقت مرة ثانية أربع رصاصات فى ثبات وتأكيد وبطريقة تعتمد على نوع من التفكير .

ثم قال المدعى . ها أنذا أيها السادة قد رسمت أمامكم خط الحوادث التى قادت هذا الرجل إلى أن يقتل وهو يدرى ما يفعل ، وإنى لألح على هذه النقطة إذ لسنا أمام جريمة قتل عادية أو عمل لم يسبقه تدبير ، وتلابسه ظروف تستطيعون بها أن تخففوا من حدته ، إن هذا الرجل أيها السادة رجل ذكى . ولقد سمعتموه ، أليس كذلك ؟ إنه يعرف كيف يجيب ويعرف

قيمة الكلمات ، وأن المرء لا يستطيع أن يقول انه قد عمل وهو لا يدرى ماذا عمل .

* * *

ويقول مورسو : لقد أصغيت إليه وسمعته يحكم بأنى ذكى ، ولكنى لم أفهم جيداً كيف تستطيع صفات رجل عادى أن تصبح أدلة اتهام دامغة ضد متهم ، وعلى هذا فقد كان الذى أدهشنى ولم أصغ إليه قوله . هل عبر على الأقل عن أسفه ؟ كلا أيها السادة ، إنه لم يبد ولا لمرة واحدة خلال التحقيق متأثراً بسبب جريمته الشنيعة .

وفى هذه اللحظة التفت المدعى نحوى وأشار بأصبعه وهو مستمر فى مهاجمتى بشدة دون أن أفهم — فى الواقع — لذلك سبباً . ولا شك أنى لم أكن أستطيع أن أمنع نفسى من الاعتراف بأنه على حق ، إذ لم أكن آسف على عملى ، ولكن كان يدهشنى كل هذا الإلحاح فى الهجوم ، ووددت لو أنى حاولت أن أشرح ودياً أنى لم أستطع حقاً أن آسف يوماً على شىء ما ، فقد كنت دائماً مشغولا بما سوف يحدث لى ، فى اليوم أو الغد . ولكنى بالطبع لم أستطع أن أكلم أحداً بهذه اللهجة وأنا فى هذه الحالة التى وضعونى فيها ولم يكن لى الحق فى أن أظهر نفسى

محباً بل وذا نية طيبة ، وحاولت مرة أخرى أن أصغى ، لأن المدعى أخذ يتكلم عن نفسيتى .

كان يقول . . أيها السادة المحلفون : لقد انحنيت على نفسه فلم أجد شيئاً . وقال عنى — إننى فى الحقيقة ليس لى نفس ، بل ولا أى شىء بشرى — وإنى بعيد كل البعد عن أى نوع من المشاعر الإنسانية التى تصون قلب الإنسان . وأضاف . . . ولا شك أننا لا نستطيع أن نلومه على ذلك ، إذ ليس لنا أن نشكو من فقدانه شيئاً لم يكن يستطيع أن يناله يوماً ما ، ولكن عندما تتولى المحكمة الأمور يجب أن يتحول التسامح وهو فضيلة سلبية إلى القصاص . وهو فضيلة أخرى أقل سهولة وأكثر سمواً . . خصوصاً عندما يصبح فراغ القلب الذى تكشف عند هذا الرجل هوة قد يتردى فيها المجتمع ، ثم تكلم بعد ذلك عن موقفى إزاء أمى وأعاد ما قاله فى أثناء المرافعات ، ولكنه كان أكثر استطراداً عندما تكلم عن جريمتى وبالغ فى استطراده حتى إنه قال للمحكمة « إن هذه المحكمة أيها السادة ستنظر غداً أشنع جريمة . قتل أب ، وفى رأيه أن الخيال يتقهقر أمام هذه الجناية المتوحشة . وأنه يجرؤ فيأمل أن عدالة البشر ستحكم فيها بلا ضعف ، ولكنه لا يخشى أن يقول أن الاشمئزاز

الذى تبعثه جريمة قتل الأب فى نفسه أقل من ذلك الاشمئزاز الذى يحسه أمام عدم حساسيتى . وفى رأيه أن الرجل الذى يقتل أمه معنوياً يجب أن ينبذ من المجتمع البشرى كذلك الذى يحمل يداً قاتله إلى من هيأ له الحياة .

* * *

وعندما جلس أعقب ذلك فترة صمت وكنت مذهولا بسبب الحر والدهشة وسعل الرئيس قليلا وسألنى فى صوت خفيض جداً عما إذا كان لدى شىء أقوله ولما كنت أرغب فى الكلام فقد وقفت وقلت فى شىء من الارتجال إنى لم أتعمد قتل العربى . فرد على الرئيس أنى أثبت بذلك الجريمة على نفسى كما أنه يسعده قبل أن يسمع محامى أن أوضح له الدوافع التى أوحت إلى بما اقترفت فقلت سريعاً وأنا أمزج بين الكلمات إلى حدما وأحس بما فى أقوالى من شىء مضحك إن السبب هو الشمس . أعنى أن الشمس هى التى أثارت أعصابى .

فأعقب ذلك ضحكات فى الردهة .

* * *

ونكتفى بهذا القدر من القصة العجيبة التى تصور حياة إنسان وجودى يظن أنه غريب فى مجتمع لا يفهمه ويرى أن كل ما يفعل إنما هو الصواب وأنه لا يندم على شىء .

نهاية الوجودية

هل الوجودية تحمل أسباب بقائها أم موتها . . ؟ ذلك أن هناك مقاييس يمكن بها معرفة المذاهب أو الدعوات التى تحمل طابع البقاء أو تكون كفقاقيع الصابون ترتفع قليلا فى الهواء ثم تتلاشى .

والوجودية تقوم على أسس منهارة لن تستطيع الصمود طويلا إذ لا يمكن اعتبار الانفصال عند المجتمع والعقل والمثل العليا أسساً صالحة للبقاء لأنها تؤدى إلى الانحراف عن الجوهر الإنسانى .

وهى تدرك أنها ليست صالحة للبقاء ، وقد لا يستطيع الإنسان فى الأعم الأغلب من الظروف أن يستمر وجودياً على هذا الطريق المنحرف أبد الدهر فيظل مخالفاً لتكوينه الروحى والذهنى والوراثى والاجتماعى معادياً لما ارتضته البشرية خلال أجيال من التجارب والمعرفة ، فلن يظل مغمض العينين مستسلماً لعاطفة الذات معتنقاً عقيدة خاطئة بأنه لا منجاة

لروحه إلا بانتزاعها من الضمير العام وإخضاعها لعبودية الأهواء والنزعات الذاتية .

فهو إن عاجلا أو آجلا سيشعر بجفاف الوجودية ومجانبتها لنظم الحياة وأنها ليست فلسفة متفائلة تعمل على تجميل الوجود ، وليست إنسانية على الإطلاق ، ولا يمكن لإنسان أن يعيش حياته كلها عدواً لله وللعقل فى خصومة مع الضمير العالمى ، إننا نعيش فى زمن تزداد فيه قوة الطبقات الصاعدة فى تعاون يقوى ويشتد على مدى الأيام ، ولا بد أن تجرف المخمورين بنشوة كاذبة بما يسمونه زيفاً حرية الاختيار .

لن يستطيع إنسان أن يعيش إلى الأبد فى رعب دائم من الحياة يلتمس المسارب ليهرب منها سيما وأن ما يدعوه اختياراً حرا غير قائم على أى نظم أو مقاييس ثبتت صلاحيتها ، فهى إذن نوع من التخبط

ولما كانت الوجودية تشل يدها عن أن تشد على أيدى الآخرين فهى إذن تعوق أى نضال تقدمى وبذلك يصبح شعارها اللامبالاة أو نوع من التصوف السلبى ، فهى لا تزيد على أن تكون مجموعة تبريرات وهمية لتجسيد وجهات نظر فردية ، وتغليفها بغلالة من القداسة المدعاة ، مع افتقارها

المطلق إلى أى تحديد للغايات والأهداف ، وفرار من كل ما اصطلح الناس على أنه حق وخير وجمال .

* * *

إنها خيانة للمثل العليا والعقل والنظام العام ، ولكل روح كفاحية أو تقدمية وتخدير مقنع للقوى العاملة وإيحاءات جنونية فى وثبات هستيرية من داخل النفس وتصميم أحمق على تنفيذ « اللاشىء » .

إنها ليست دعوة إيجابية لأنها لا تستهدف أهدافاً إيجابية على الإطلاق ولأنها تجعل الناس فى شغل دائم بذاتهم الفردية وتحملهم على الحقد على كل عمل جماعى .

فهى إذن فى مجموعها حركة رجعية مدمرة .

* * *

مصادر البحث

الوجودية : هنرى لوفافر

الأسرة الوجودية : موحان

شعوذة فلسفية : بلتيزر

الوجودية ليست إنسانية : كانابا

الفلسفة الوجودية : زكريا إبراهيم

الوجودية : أنيس منصور

قصة الغريب (لألبير كامو) : ترجمة السيدعطية ومحمدالإمام

السلام والإسلام : سيد قطب

obeikandi.com

دار المعارف بمصر

للطباعة والنشر والتوزيع

تشتمل قائمة مطبوعات « دار المعارف » على قسم خاص حافل بمختلف ضروب الدراسات الإسلامية القيمة من كتب فى التفسير والشريعة والحديث والحضارة تعين على تفهم الدين الإسلامى والتعمق فى دراسته وفيما يحيط به من آداب وعلوم لا يستغنى عنها طلاب العلم والثقافة .

فلا تجعلن مكتبتك تخلو من هذه الكنوز الفكرية ومنها :

- تاريخ الحضارة الإسلامية
- مرآة الإسلام
- الديمقراطية فى الإسلام
- تفسير الطبرى
- التفسير العلمى للآيات الكونية فى القرآن
- التصوير الفنى فى القرآن
- مشاهد القيامة فى القرآن
- إعجاز القرآن
- ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن

obeikandl.com